

الموشح -

للأستاذ توفيق الضوى

لقد كان الشعر في أول أمره سجعاً غير مقيد بالقوافي الموحدة ؛ إنما كان قطعاً قطعاً وشدوراً شدوراً كل اثنين منها أو أكثر على قافية واحدة ، ثم توحدت القوافي في بعض الأوزان الشعرية انطلاقاً مع الأفكار والمحاكاة ، عدا الأراجيز التي بقيت مختلفة القوافي فسهل النظم عليها في القواعد والضوابط التي هي من القيود المتينة ، ثم لما كثرت الأغراض وضائق قوافي الشعر عن استيعابها عدل الأندلسيون إلى التفتن فيها فأوجدوا الموشحات غير متقيدين بالقوافي الواحدة ، بل تفتتوا فيها بمظاهر مختلفة ذهاباً مع الأفكار وهياماً في سماء الخيال . على أن للقرينة والذوق والحس والخيال تأثيراً كبيراً على الشعر وتجديده وابتكاره مانيه والتصرف في قوافيه والتلاعب بأوزانه فوق ما لتأثير السلاطة والأقليم والعمران وما يتعلق بها ، فلماذا كان الفرق بين الشعر العربي والأعجمي عند الأمم ، وبين الغربي والشرقي عند العرب . ومن المعلوم أن فنون الشعر سبعة : هي القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والموالي ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما ، وقيل إن الخماق منها أيضاً فتكون ثمانية . وثلاثة من فنون الشعر هذه مغربة ولا يغتفر اللحن فيها ، وهي القريض والموشح والدوبيت ؛ وثلاثة ماحونة دائماً وهي الزجل وكان وكان والقوما . وأما المواليا فيحتمل الإعراب واللحن . والآن نتكلم عن الموشح الذي هو مدار بحثنا ...

فالموشح فن من فنون الشعر الرائعة التي توسع فيها شعراء الأندلس انطلاقاً لبنات أفكارهم في سماء الخيال فأجادوا ما شاءت بلاغتهم وعنايتهم في اظهار المنظومات في قالب جديد مطبوعة على غرار جميل مطرزة بوشى لطيف حتى تفوقوا على غيرهم بهذا التصرف البديع الذي اقتبسه عنهم المغاربة فالمصريون فالسوريون فالعراقيون ؛ وعم عالم الشعر العربي الذي زاده التوشيح محاكاة فوق محاكاة أوزانه المطربة ، فكانت الموشحات موسيقى الشعر التي تضرب على أوتار القلوب ، فتناولها الشعراء بمنتهى الإقبال

والتكريم وتباروا في الاجادة في فنونها هامين في سهولها وضروبها ، راشفين من صافي معيها ، واصفين مظاهر الطبيعة والعالم على اختلاف شؤونها . فالأندلس أم الموشحات ، وصفاء أذهان شعرائها رأس هذه الاختراعات ... وهذا ما قاله صفوان المرسى الأندلسي يصف تأثير مناظر الأندلس في شعرائها حتى أحسنوا النظم والنثر متفوقين فيهما على غيرهم هنالك بين الغصن والقطر والصبأ

وزهر الزبي وتدت ، آداني الشغرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري
تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زهر الزبي
تعلمت حل الشعر أسبك نثرا
فوائد أسرار هناك اقتبسها
ولم أر روضاً غيره يقرى السعرا
كأن هزير الريح يمدح روضها

فيملاً فاما من أزاهره درا
قال ابن خلدون في الموشح : لما كثر الشعر في الأندلس وتهدت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه الموشح ينظمونه أسماطاً وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوراقها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبياب . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد . وتجاروا في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه .

قال أبو عبد الله محمد الأزرقي الأندلسي في مدح موشحه ذهاباً إلى القصيدة :

بعث بها عذراء رائعة الحلى قضت أنها للبعلمات مرشحة
توشحت اللفظ البديع وأقبلت فها هي تبدو للعيون موشحة
ووصفها ابن دحية الأندلسي بقوله :

الموشحات هي زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته . وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل

المشرق ، وظهر وأفيها ظهور الشمس الطالعة والضياء المشرق ...
وقال ابن معصوم في سلافة العصر : ولأهل اليمن أيضاً نظم
يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب ؛ والفرق بينهما أن
موشح أهل المغرب يراعى فيه الأعراب ، وإن وقع اللحن
في بعض الموشحات التي هي على طريقتهم لكون ناظمه جاهلاً
بالعربية فلا عبرة به ، بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى
فيه شيء من الأعراب بل اللحن فيه أعذب ، وحكمه في ذلك
حكم الزجل

وللموشحات اصطلاحات لا بد منها ، مثل اللازمة ،
والمبدأ ، والدور ، والدرج ، والباطحي ، والمجنح ، والخرجة ،
والسلسلة ، والقفلة ، والانصراف ، والمجنب الخ

وأول من اخترع الموشحات في شبه جزيرة الأندلس
مقدم بن معافر الفريري ، والفريري نسبة إلى فريرة وهو حصن
بالأندلس من أعمال كورة البيرة ؛ وقد يكون جده منسوباً إلى
فرير وهي قرية بين جيحون وبخارى في بلاد العجم ، أو بلدة
بخراسان كما ذكر السمعاني في أنسابه . ويقاوت الرومي في معجم
البلدان . وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني
(٢٧٣ هـ ، ٨٨٦ م) وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد ربه
مؤلف العقد الفريد . وجاء بعدهما كثير من الشعراء . ففتنوا
في الموشحات حتى فاقوا من سبقهم فاشتهرت موشحاتهم ، وأشهرهم
عبادة القزاز وغيرهم . وانتقل بعد ذلك الموشح من الأندلس
إلى المغرب ، ومن هذه إلى مصر ، ومنها اتصلت بسورية فالعراق ،
وذلك في العصر العباسي الرابع وفي أثناء القرن السادس للهجرة ...

قال الزبيدي في معجم تاج العروس : التوشح اسم لنوع
من الشعر استحدثه الأندلسيون ، وهو فن عجيب له أسماط
وغضون وأعاريض مختلفة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة
آيات . وقال أيضاً : الوشاح بالضم والكسر رसान من لؤلؤ
وجوهر منظومان يخالف بينهما ، توشح المرأة به ، ومنه اشتق
توشح الرجل بثوبه ، وقال غيره أخذ التوشح من الظبية
الموشحة وهي التي في جنبها طرتان

قال القيراطي موجهاً بالزجل والموشح ذهاباً إلى الشعر :
أرتاح للأقار وهي طوالع وشموس راحي للغارب تنجح
ويهزى زجل الطيور بلحنها والروض بالزهر النظم موشح

وباخترع فن الموشح كان له الأثر العظيم في الشعر
الأوربي ، لحاكي شعراؤهم هذه الأوزان والأشكال كما
نرى في منظوماتهم ، ولا سيما قصائد فيكتور هوغو شاعر فرنسا
في ديوانه المسمى بالشرقيات ، وكذلك قصائد غوته الشاعر
الألماني وغيرهما من شعراء بقية الأمم الأوربية التي وقفت
على أشعار عرب الأندلس وموشحاتهم الخالدة ، فكانت القافية
عندهم لا تلتزم في أكثر من بيتين كالأراجيز عندنا ، أو أنها
تلتزم في أبيات وتغير وتعود إلى اللازمة كما في الموشحات ؛
ومنها نوع من الشعر يسمونه الأبيض وهو ما كان غير
مقني كشعر شكسبير شاعر الانكليز وغيره ...

قال أبو الوليد بن رشد الأندلسي في تلخيص كتاب
أرسطو في الشعر ما نصه : والمحاكاة في الأقاويل الشعرية
تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل
الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوحد كل واحد منها
مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في
الرقص ، والمحاكاة في الملقط : أعني الأقاويل المخيلة غير الموزونة .
وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع
الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها
في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية
هي ما جمعت الأمرين جميعاً ؛ فالصناعة المخيلة أو التي تفعل فعل
التخييل ، ثلاثة ... صناعة اللحن ، والوزن ، وعمل الأقاويل
المحاكية . ومن أبدع فنون الموشحات كتاب المديح لعبد المنعم
عمر بن حسان الغساني الأندلسي الجليلاني الفهستة ٥٦٩ هـ ويوجد
في المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وكتاب جيش التوشح
للسان الدين بن الخطيب ، وعقد الألال في الموشحات والأزجال ،
لشمس الدين النواحي ، ردار الطراز في عمل الموشحات لابن
سنة الملك ، والدر المكنون في سبعة فنون لمحمد أحمد بن إياس
الحنيني ، وحاوي الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان وغيرها
من المؤلفات القديمة القيمة . هذه كلمة موجزة عن تاريخ
الموشح وعمله كتبها خدمة لهواة الشعر والموسيقى ليكونوا على علم
باصول الموشح وتاريخه لارتباطه الوثيق بفن الموسيقى والغناء

توفيق المصري

(ألكندرية)

أستاذ في الموسيقى